

## الفصل الثالث:

الحاكم الطيب والشعب المستبد





**تمر** المجتمعات عبر تاريخها الطويل بحقب تاريخية وعصور وحضارات وغالبًا ما تكون الحقبة لحاكم بعينه ويتسم عهده بسمات مغايرة لمن سبقه، والعصر لجملة من الحكام لهم أيديولوجية واحدة مع تفاوت بسيط بينهم في نمط القيادة، أما الانتقال من عصر إلى عصر فلا بد أن يسبقه مرحلة تاريخية ذات طبيعة خاصة يقودها حكام ضعفاء، ليسوا سوى أبواق ووجهات لجماعات مصالح مختلفة.. ويكون الحاكم مجرد ختامة قرارات لا يدرك مغزاها ولا توابعها، تُصنع في غرف مغلقة بعيدة عن الشعب والحاكم، وتمر عبر مؤسسة الرئاسة لتصبح بمثابة فرمانات، يتحول بمقتضاها الرئيس من حاكم طيب إلى ديكتاتور.

وفي هذه المرحلة من سقوط حضارات وبزوغ أخرى؛ ينقسم الشعب إلى ثلاثة طوائف، الأولى جماعات المصالح وهي تلك التي تدعم الرئيس وتدافع عن شرعيته، ويثق بها الرئيس ويستقوى بأفرادها أكثر من استقوائه برجال السلطة، ويرضخ لتنفيذ قراراتها ولو كانت ضد مصالح الشعب؛ إيمانًا منه بأنه الجماعة هي التي أتت به إلى سدة الحاكم وصاحبة السلطة في الإبقاء عليه أو عزله، وبمقتضى هذه الثقة تضع الجماعة أصابعها في كل أمور الحكم لإحساسها العميق بأنها الوصي الشرعي على الرئيس

ومقاليد الحكم وليست على استعداد للتفريط فيها، وبمقتضى ذلك يصبح الرئيس الديكتاتور بسبب تأييد جماعته رجل طيب مغلوب على أمره، ويصبح الشعب المعارض والمرغم على تنفيذ قرارات تكبل حريته شعباً مستبد.

والطائفة الثانية وهي القطاع العريض من الشعب، تفضل دائماً الجلوس على كرسي المتفرجين على المشهد السياسي وصراع النخبة مع النظام الحاكم، ولا يدفع بها للشارع سوى العاطفة والجوع. وفي وقت اليسرة تلعب جماعة الرئيس دوراً على عاطفة الصامتين الذين حظ الجهل على عقولهم فأصبحوا لا يروا إلا أسفل أقدامهم، ويصبح للدين والميتافيزيقا تأثير السحر في تصرفاتهم، وربما بمثابة تنويم مغناطيسي لتوجيه الصامتين الوجهة التي ترتضيها الجماعة، وفي أحسن حالات الوعي السياسي يفقد الصامتون الثقة في كل شيء ولا يعوون إلا لمصالحهم الوقتية، فيميلون إلى بيع أصواتهم لمن يدفع أكثر من المرشحين، ويصبح الكرش الكبير علامة القوة والحاصد الأقوى للأصوات في الانتخابات، وإذا لم يجدوا من يدفع الثمن يصبح الدين هو البديل، فإن عجزوا عن شراء سعادة الدنيا بالمال؛ تنافسوا على شراء سعادة الآخرة بالتدين. ومن هنا يصبح من المفيد سياسياً أن يتحول رجال الدين من دعاة للدين إلى رجال سياسة مستغلين رصيدهم القيمي لدى الشعب.

والطائفة الثالثة هي من أطلقت على نفسها النخبة، عرفوا لدى الشارع بتاريخهم النضالي المشرف، دائماً ما كانت تحركهم دوافعهم الوطنية نحو الاعتراض على مفسد الحكم، ولكن في هذه المرحلة تتحول فيها مشاعر النخبة من الوطنية إلى أقصى درجات الأنانية؛ فلا يرون من أمور السياسة سوى ما فيه مصالحهم. وتصبح الأغلبية الصامتة هدفاً لكلا الطائفتين - جماعة الرئيس والنخبة - والذي ينجح في استمالتها هو الذي يحظى بالسلطة، ففي حين تراهن جماعة الرئيس وأنصاره على قوة الدين تراهن النخبة على بريق المال.

ولما كانت أهداف النخبة شخصية للغاية بالإضافة إلى شعورها بالفشل في استمالة الصامتين؛ فإنهم يفضلون دائماً الاستعانة بالقوى الخارجية لفرض هيمنة على الرئيس وجماعته وغالباً ما يكون ذلك الضغط في شكل ضغوط اقتصادية تمارس على النظام الحاكم يتحمل الشعب وحده مغارمها. وهنا يحدث الصراع المباشر بين النظام والنخبة فيسقط الاقتصاد، ويجوع الصامتون .. فيخرجوا عن مشاعرهم إلى الشارع ليفتكوا بالطائفتين؛ فلا ينفع الرئيس جماعته ولا النخبة أصدقائها ويشهد المجتمع بزوغ حضارة جديدة تكون السلطة فيها للشعب.

□ □ □ □